**نبذة عن المصادر الأوروبية حول تاريخ الجزائر الحديث :**

**القرنين السادس عشر والسابع عشر**

د. أمين محرز

إنّ المصادر الأوروبية جدّ مفيدة لفهم بعض الأحداث التاريخية وجوانب من النظم الإدارية والعسكرية، ناهيك عن المواضيع المجترّة على الدوام مثل القرصنة ووضعية الأسرى والعلاقات مع الدول المسيحية ؛ وذلك رغم الأخطاء الّتي كثيرًا ما وقع فيها مؤلّفوها بحكم التعصّب الدينيّ، أو الجهل بلغة وتقاليد سكّان البلاد، أو الأحكام المسبقة المنافية للواقع كما نستشفه من قراءة كتاباتهم. والمصادر الّتي تعود للقرنين السادس عشر و السابع عشر لا تخرج عن ذاك السياق ؛ ولكن رغم أنّ الكثير من تلك المؤلّفات تعوزها غالبًا الموضوعيّة، وتقدّم بعض المعلومات بشكل غير واضح أو مشوّه، إلاّ أنّها تبقى بالنسبة للباحث ذات قيمة تاريخيّة لا يمكن إنكارها. ومن مؤلّفات تلك الحقبة التاريخية نذكر على سبيل المثال تاريخ ملوك الجزائر الّذي ينسب للأب هايدو، ورواية أسر ماسكارينياس، ورواية سبع سنوات أسر لفرنسيس نايت، وتاريخ بلاد البربر و قراصنتها للأب دان، ورواية أسر دارندا، ومرآة الصدقة المسيحيّة للأب ميشال أوفري، والحالة الراهنة للجزائر لمؤلّف مجهول، ومذكّرات الفارس دارفيو.

لقد كانت من أولى الرحلات الاستطلاعية الأوروبية إلى الجزائر منذ بداية الوجود العثماني فيها، تلك الّتي قام بها نيكولا دي نيكولاي الّذي زار الجزائر عام 1551 في إطار سفارة دارامون، وهو في طريقه إلى اسطنبول ؛ وكان نيكولاي جغرافيًا من أفراد الحاشية الملك الفرنسي هنري الثاني، حيث قدّم وصفًا - فريدًا بالنظر إلى تاريخه - لمدينة الجزائر ودلّس وعنابة ضمّنها في صفحات معدودة من كتابه (**Quatre premiers livres des Navigations et pérégrinations en la Turquie**).

إلى جانب هذا العمل المهم، يوجد التأليف ذو القيمة التاريخية المميّزة الّذي نسبه الراهب الإسباني دييغو دي هايدو لنفسه، وأثبتت عدّة دراسات أكاديمية حديثة أنّه يعود في مجمله للدكتور البرتغالي الأصل أنطونيو دي سوزا (متوفي في 1587)، حيث قدّمه المنتحل تحت عنوان "طوبوغرافيا وتاريخ الجزائر العامّ" (**Topographia e historia general de Argel**) ؛ واشتمل الكتاب، الّذي طبع بعد وفاة المذكور في 1612، على خمسة محاور : المحور الأوّل حول "طوبوغرافيا الجزائر" والثاني تناول "ملخّصات عن ملوك الجزائر" والثالث حول الأسر والرابع حول الشهداء والخامس حول المرابطين (نسّاك الصوفية). وتجدر الإشارة إلى أنّ المحاور الثلاث الأولى ترجمت إلى الفرنسية خلال القرن التاسع عشر ونشرت تباعًا.

ورغم الأهمّية الّتي يكتسيها مؤلَّف دي سوزا - الّذي استكمله دي هايدو - بالنظر إلى تفرّدها في ذكر العديد من الأحداث والجوانب التاريخية، إلاّ أنّه يجب التنبّه إلى المغالطات والتشويه الّذي لمسناه في ثنايا عمل دكتور اللاهوت وكذا الراهب، لا سيّما أنّهما كانا يستقيان غالب معلوماتهما من روايات أسرى محرّرين لم يشهدوا الأحداث، بل وصلتهم أخبارها على شكل إشاعات أو أخبار محرّفة.

إن العمل الّذي قدّمه لنا فرانسيس نايت (**Francis Knight**) يعتبر أحد أهم الأعمال الانجليزية الّتي كتبت عن الجزائر خلال القرن السابع عشر، حيث أسر الأخير من طرف بحّارة الجزائر سنة 1631، وتكمن أهمّية هذا المصدر (**A Relation of Seven Yeares Slaverie Under The Turkes of Algeire, Suffered By an English Captives Marchant**) في كونه يؤرّخ لفترة مجهولة نوعًا ما من تاريخ الجزائر العثماني، حيث عاصر أحداث ثورة الكراغلة لأنّه كان عند نشوبها أسيرًا في المدينة ؛ والأمر الملفت بالنسبة لهذا الكاتب، الّذي قضى مدة سبعة سنوات أسيرًا بالجزائر، قوله أنّ آلاف البحّارة المسيحيين كانوا يفضّلون الإقامة في سجون الجزائر على التعفّن في السجون اللّيفورنية، أو الموت من "الجوع والبرد، في السجون الإنجليزية".

رغم ذلك، فإنّ فرانسيس نايت لم يخفي المعاناة الّتي شعر بها مرارًا لفقد حريته، فالعبودية تبقى عبودية : "إن أهل وطني يعانون تحت عبودية القساة الأتراك، وما عانيته أنا بنفسي كان فظيعا ؛ فقد فقدت ممتلكاتي، وسبعة سنوات من المعاناة في الأغلال على ظهر السفن الجزائرية". وقام بعده ايمانويل دارندا الفلامنكي برواية أهمّ ما وقع له خلال فترة أسره (1640-1641) في كتابه المنشور في 1662 الّذي ترجم إلى العديد من اللغات الأوروبية (**Relation de la captivité et liberté du sieur Emanuel d’Aranda**)، ولم يقتصر على ذلك بل ضمّن كتابه الكثير من الروايات أو بالأحرى القصص القصيرة الّتي عرفتنا أشياء هامّة عن المجتمع الجزائري آنذاك، وعن معيشة الأسرى المسيحيين آنذاك في الجزائر العاصمة، بشكلٍ ممتع ونابض بالحياة يختلف تمامًا عن الصورة القاتمة الّتي درج الكتّاب الآخرون على رسمها في إطار الحرب بين الهلال والصليب.

**المصادر و المراجع المعتمدة :**

- Aranda, E. d’. **Relation de la captivité & liberté du sieur Emanuel d’Aranda, jadis esclave à Alger ; où se trouvent plusieurs particularités de l’Affrique, dignes de remarque**. 3ème édition, augmentée de treize relations, & autres tailles douces, par le mesme Autheur, Jean Mommart, Bruxelles, 1662.

- Arvieux, Chevalier L. L. d’. **Mémoires du chevalier d’Arvieux**, mis en ordre par le R.P. Jean-Baptiste Labat, T. 5, Delespine le fils, Paris, 1735.

- Avity, P. d’. **Description générale de l’Afrique**, De Rocoles, Paris, 1637.

- Dapper, O. **Description de l’Afrique contenant les noms et la situation… Avec des cartes des états des provinces et des villes, traduite de flamand**, Wolfgang, Amsterdam, 1686.

- Haedo, Fray Diego de. **Topographia e Historia general de Argel**, Diego Fernandez de Cordova y Oniedo, Valladolid, 1612

- Haëdo, D. de, "**Histoire des Rois d’Alger**", trad. et annotée par H.D. de Grammont, in R.A. 24, 1880, pp. 37-69, 116-132, 215-239, 261-290, 344-372, 401-432 ; 25, 1881, pp. 5-32, 97-120.

Nous avons accessoirement utilisé l’édition plus récente des Éditions GAL, Alger, 2004.

- Haëdo, Diego de. **De la captivité d’Alger**. Trad. Moliner-Volle, Alger, 1911.

- Haëdo, D. de, **La vie à Alger les années 1600. Topographie et histoire générale d’Alger**, trad. par Monnereau et Berbrugger, Éditions Grand-Alger Livres, Alger, 2004.

- Knight, F. **A relation of seven years slavery under the Turks of Argeire, suffered by an English captive merchant**, London, 1640.

- de Nicolay, Nicolas. **Les quatre premiers livres des navigations et pérégrinations orientales**, Guillaume Roville, Lyon, 1568.